أوائل القرن الثامن عشر (١))

وليست هذه العصبية وقفاً على العرب دون سواهم وليست هي خاصة بمصر من العصور أو قطر من الأقطار دون غيره فقد رأينا كثيراً من الغربيين في الشرق يجعلون التعصب الأعمى لأبناء وطنهم على غيرهم دستوراً في حياتهم ومعاملاتهم

وأضاف الأستاذ عبد العظيم إلى الكلمة الأخيرة من اسمي الكامل كلمة (عبد) قصيرها (عبد الرحيم) وهذه الإضافة أما من استبداد السهو بالقلم أو أن الأخ يرى كلمة (رحيم) من الأسماء الحسنى لا يجوز أن يسمى بها شخص من غـــير تعبيد . وعلى الاحتمال الثاني أقول أن (رحيم) بمعنى الفاعل من أسماء الله الحسنى وبمعنى المفعول من غيرها فانتفى الحرج. وقد ورد في مختار الصحاح وغيره : و(الرحيم) قد يكون بمعنى المرحوم كما يكون بمعنى الراحم)

وأحمد للأستاذ هذا الاهتمام وأشكره

الحلة (العراق) أحمد عيسى الرحيم

(١) تاريخ العرب للدكتور فليب حتي. الكتاب الثالث ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع ص ١١٣ مطبعة النجاح بغداد ١٩٤٦

دمعة فاجر !

للاستاذ عبد اللطيف الشهابي

« ... إلى الذين تاهوا في فلوات الغي والضلال .
إلى الذين ابتعدوا عن المورد العذب .
إلى فرسان الضباب . . أقدم هذه الأنصوصة ! ! »

يالي من عربيد فاجر ! .

كنت أجري وراء اللذات ، أينما حلت وحيثما ارتحلت ، كنت أشتريها بأي ثمن كان، فأندفع إليها اندفاع الطائش المغرور ، وأنا غائص في الأوحال . أعمى من رماد الزمن . . تصرعني الجذوة الحمراء وهي تلح في ذروة سعيرها ! .

رافقت الشيطان في رحلاته، ورقصت معه على أشلاء الفضيلة ونحن نردد أغانينا المحبوبة: في رقصتي عطر وكأس وجسد ! .

كنت أقضي الساعات والليالي بين صخب وعربدة وعجون ، بين قصف ورشف وأنغام . . تبهرني الأضواء الساطعة ، وترسل صداها في نفسي ، فتتركني مغموراً بدنيا أسراري ، بدنيا لذاتي متطلعاً بلهفة قاتلة ، لعلي أفهم كنه ذلك السر المجهول !

كنت أسير عواطفي ، أتقلب بين شك ويقين ، بين كفر وإيمان ، بين حيرة ورشاد . . أندفع بكياني رغم كل شيء ، فتتراءى لي من بعيد ، من هناك : أخيلة وهواجس ، رؤى وأحلام ، أنوار وسراب . . فأنسرب في المجهول وأنا غير هياب ، أفتش عن سر دفين ، عن تلك القوة الهائلة التي تجذبني قسراً إليها ، فتحطم أغلال إرادتي . . فأندفع اندفاعة طائشة ، وأنا أرتجي الخطوة ، أرتجي الأمل الذي يتراءى لي من بعيد — كما أتصور ذلك — فبقيت في حيرتي هذه بين مد وجزر ، أفتش عن كل شيء ، أريد كل شيء . . ماذا أريد ؟ ! أريد طريق ! . وأي طريق ؟ ! طريق القهقرى ؛ طريق الوعر اليابس ! ! أريد مواكبي ! . وأي مواكب ؟ ! مواكب الذكرى ، مواكب الشباب النضر ، مواكب التوبة . . ولكني كيف ؟ ! وقد فاتني الشباب ، وفاتني الركب بل غابا عني واندثرا في فجاج الماضي البعيد ، وقد غصت في الأوحال ، واندفعت في الخطيئة إلى أبعد مراميها !

أجل كنت هكذا . . لا أعرف سبيل التوبة ولا طريق الغفران . . قل عني ما تشاء أيها القارئ . قل إني فاسق حقير سافل ! ولكن تمهل قليلا حتى أسرد لك هـذه القصة التي بدلت وجه حياتي . هذه القصة الفاصلة بين لذتي وزهدي بين غوايتي وهدايتي ! . بين أغنية الشيطان وبين تسابيح وغفران ... هي قصة حياتي أقصها كما هي

« ... حفت خطاتي الحمر . والجذوة الصارمة تفتك بي وتدفعني بقوة هائلة . . إلى هناك ، إلى أحد تلك البيوت السرية المنتشرة في الجانب الغربي من بغداد . وكان معي صديق عزيز، يشاركني وأشاركه في كل شيء لا يتركني في أي لحظة ... وسار ... من هو ؟ ... إنه ... الشيطان ، ذلك الدليل الخبير !

أجل سار معي إلى هناك في طرف بعيد منعزل، في محلة حقيرة من المحلات، يطلقون عليها اسم « محلة الذهب »، ولا أدري من أسماها بهذا الإسم ؟ ! ولم أطلق عليها هذا النعت ؟! ألأن الذهب يسيل من أصابع روادها، فيغور ويختفي في خزائن أهلها ؟

ودخلنا أحد الوكاكير، أنا ودليلي ... دخلنا متلصصين، دخلنا نطلب التهمة ونغوص في الآثام !

وفي غرفة حقيرة، تكاد تكون مظلمة، لولا ضوء خافت يتأرجح من مصباح زيتي معلق في ركن من أركانها : جلسنا هناك على أريكة متداعية، راحت تئن تحت ثقل أجسامنا ! ورحت أنقل بصري في أرجاء هذا المخدع، إن جاز لنا أن نسميه مخدعاً. وإلا فهو أشبه ببيت أرملة فقيرة أتت على البقيـــة الباقية من مخلفات زوجها ؛ فلم يبق منها ما يستحق الذكر، أو ما يستحق أن تبيعه ! هناك سرير قديم محطم الأوصال مزعزع الأركان، عليه فراش قذر تمزقت أطرافه، وأطلت منها بجزع شديد بقايا من صوف أدكن، وكأنه امتزج بحفنات من طين.

وربضت فوق هذا الفراش ستارة بالية مهلهلة، توارى لونها الأبيض وحل مكانه لون قاتم سقيم .. وتناثرت هنا وهناك بقع جامدة كأنها عيون فاجرة، أو كأنها بصقات الشيطان

وعلى الجدار .. علقت حصير صغيرة عض عليها الزمن فسلب ألوانها، وكأنها شعرت بهذا الخزي الفاضح فراحت تتلاشى في الجدار، وتختفي وراء صور باهتة ممزقة انتزعت من مجلات عديدة. وفي طرف آخر، وقرب نهاية السرير، علقت مرآة كبيرة قد نخر الدود إطارها الأسمر، فأصبحت كخلية نحل مهجورة فباتت الصراصير فيها تمرح وتصفر.

جلسنا هناك، أنا وصديقي، نقضي ليلة حمراء، ليلة صاخبة رعناء. وبقينا هنيهة جالسين، ننتظر شريكتنا وهي فتاة ممشوقة القوام، ريانة العود. اخترتها حين دخولي في هذا الوكر

وران علينا الصمت ... فبقيت أتملى في أرجاء المخدع ... ماذا ؟ ! لا أدري ماذا اعتراني ؟! كأن عيني في تلك اللحظة لم تألفا رؤية هذه الأشياء، وكأنني لم أتردد إلى مثل هذا المكان من قبل ... تخيلت في تلك اللحظة أن عيوناً ترقبني وتترصد حركاتي، وكأنني أرى وجوهاً تتطلع إلى باحتقار واشمئزاز، فأخذت أضغط على نفسي وأعتصرها بقوة، لعلها تهرب من هذه اللجة الطاغية، من هذه الصورة الماثلة ... أردت أن أفر من ذلك الكابوس المخيف الذي استولى علي في تلك اللحظة ... عند ذاك، وفجأة، امتدت يدي إلى جنبي وأخرجت زجاجة صغيرة بيضاء، لأغسل حوفي بما فيها من سائل أبيض كالحليب ! . . وبعد لحظات قصار شعرت ببعض الهدوء يسيطر على نفسي، وببعض الاستقرار يدب في أحاسيسي وهي تحرر في عنف وجنون .. ولم أشعر آخر الأمر، إلا أنني أستفيق من شرودي على كف بضة تمتد إلى برفق ولين فتربت على كتفي ! . فرفعت رأسي قليلا وكأنني قد نسيت تماما أين أنا؟! وماذا أريد؟! ومن جاء بي إلى هذا المكان ؟ ! ولكن ... تذكرت بعد أن ارتفعت ضحكة ماجنة في فضاء الغرفة وإذا بها غانية التي ستشاركني ليلتي هذه ... وكانت قد أخفت قسمات وجهها وراء أصباغ ومساحيق ... وراحت نحو السرير بخطوات متعثرة واهنة واستلقت عليه بإعياء شديد

وبقيت في مكاني، كأنني قد سمرت على المقعد، أو كان أغلالا قوية قد ربطت جميع أطرافي ... يالله الهول !! ماذا أحس ؟! وماذا أرى ؟! ماذا أسمع ؟! وعاد إلى شرودي، وتطاحنت مشاعري مرة أخرى ... زاغت نظراتي، إلى هناك، إلى تلك المرآة المعلقة على الجدار، فتطلعت إلى صورتي، إلى قسماتي ! ! وحملقت فيها مشدوهاً، وفتحت فمي كالمرعوب، وأردت أن أنطق بشيء، أن أزعق، أن أصرخ ... ولكن ... ولكن الكلمات احتبست في عنقي، وفاض السخط في نفسي ... أتلك هي صورتي ؟ ! تنطق بالرجس والخسة، تنطق بالشر والجريمة . . لقد أنكرت كل شيء، ورحت أتلفت حولي، وارتدت نظراتي فسقطت لاهثة متعبة على جسد تلك الأنثى، ذلك الجسد الذابل المهوك الذي تفوح منه رائحة المعصية .. لقد تخيلته في تلك اللحظة — ولا أدري لماذا ! ؟ — جيفة نتنة تطفو على وجه مستنقع آسن، تصورته أشلاء متناثرة وأعضاء آدمية مشوهة ملطخة بالدماء والأوحال ! !.

فثارت نفسي ثورة عاتية، ثورة صاخبة .. ورأيتني، وبدون أن أشعر، أتحفز للوثوب وللانقضاض ... على من ؟! وتلفت حولي فلم أجد من يستحق أن أصب عليه لعنات ثورتي، لم أجد هنا غير هذا الجسد المستباح، غير هذه الفريسة المستسلمة الخانعة

وهي لا تزال في ضجعتها على السرير ... وكأنها اطمأنت لهدوئي وسكينتي فراحت تستريح من وصب الحياة، بل راحت تسترد قواها المنزوفة طيلة النهار

ورحت أنظر إليها وهي متهالكة خائرة، تنظر إلى نظرة عطف وإشفاق ... بل رحت أقارن بيني وبينها: إنها ضحية مجتمع فاسد ونظام بالية سقيمة! . لقد دفعتها الأوضاع الشاذة في طريق الاثم والجريمة، بعد أن امتدت إليها أصابع الزمن العاتية، فاستلت منها خيوط الرجاء والسعادة، فأصبحت مومساً فاجرة، تعيش قسراً بهذا المحيط الوبوء، وهي موسومة ببصمات الاحتقار ... إنها عرض مهدر وشرف مضيع يعبث به من يشاء، بثمن زهيد!

وأنا ... عربيد فاجر ... ولا أقول ضحية ثانية من ضحايا هذا المجتمع ... أنا الذي دفعت بيدي هذه المسكينة وبأمثالها من بنات حواء، إلى مثل هذا الطريق الشائك، طريق الاثم والغواية! وجررتها إلى مثل هذه النهاية المحزنة، إلى مثل هذه الحياة الضالة الشقية، هذه الحياة الملتوية القذرة ... فالويل لي ولأمثالي من أبناء آدم، والويل كل الويل لأمة لا تستطيع أن تكفل لأبنائها لقمة العيش!

وفجأة، شعرت أن بركاناً ثائر الأنفاس كان قد انبثق في تلك اللحظة في أغواري، وأحسست أن جميع أدراني وأوزاري قد تساقطت على الأرض الواحدة تلو الأخرى، وكأنني شعرت بموجة من الندم تطغى على مشاعري، وأن شعاعاً لذيذاً تسرب إلى أوصالي، فراح ينير لي تلك الزوايا المظلمة من جوانب نفسي ونوع من الشعور لم أعرفه من قبل. هذا عجب! إن روحي تفتسل في هذا الفيض الإلهي الذي يغمرني ... فأصبحت لساعتي — وبهذه السرعة — ثائراً على الأوضاع والتقاليد، ساخطاً على أهل الصلف والمجرفة من الأغنياء، كارهاً لدهري الطاغي، ناقماً على المجتمع الذي احترف الخداع ودرج على الشر والظلم، فراح يسدل على الحقائق ستاراً من العفة الكاذبة والورع المصطنع!

كل هذه الثورة قذفتها على العالم، على هذا الكون المائج بالخبائث والمنكر، وأنا لا أزال على المقعد لا أريم؛ عند ذاك قمت من مكاني وأنا في أشد حالات الهياج والسخط، قمت لأصب غضبي، لأقذف شتائمي ولعناتي ... ولكن على من؟ وليس أمامي غير هذا الجسد الغض الطليح، غير هذه الضحية البريئة التي تحركت من مكانها ونهضت جالسة حين أحست بخطواتي تقترب منها ... وجلست بقربها، وأخذت أحدق بعيونها، فوجدتها جميلة أخاذة، يشع منها بريق عجيب فيه ذل الوضيع، فيه ثورة المتكبر! وعلى قسماتها لاحت ومضات إنسان ثائر، تلتمع من تحت رمادها جمرات من أنوثة ملتهبة!

وراحت تحدثني حديثاً عابراً لا شيء فيه، فكأنها اطمأنت إلى هدوئي ودعتي، وكأنها استقرت على رأي قاطع، تكهنت في أمره فلم أظفر بغير هذا القول الذي قطع على تصوراتي، قالت وهي تبتسم ابتسامة مغتصبة:

— يربك ... خبرني ماذا تريد؟! لقد حيرتني ...

فأجبتها وأنا على حيرة من موقفي هذا:

— جئت ... لأعرف قصتك!.

قلتها وأنا متهيب، فأجابت على الفور:

— قصتي؟!

وانفلتت منها ضحكة تخيلتها عواء مبحوحاً انطلق في جوف ذلك الليل المختنق الأنفاس، ثم أردفت وهي عابسة:

— قصتي ... هذا بديع ... إذن أنت لم تطلب مني لذة الجسد

— لا. لا ... أريد قصتك، قصتك الحقيقية، أصارحك القول أنني جئت أول الأمر في طلب اللذة، ولكنني الآن عدلت عن رأيي، فلم أطلب منك شيئاً غير قصتك ... وكفى

وراحت تتفرس في وجهي ... وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماق لتستجلي السر الدفين الذي دفعني لأن أطلب منها هذا الطلب اليسير! ولما اطمأنت إلى وعرفت صدق قولي ونبل غايتي، ابتسمت قائلة:

— إذن سأكشف لك عن جراح قلب أدمته الأيام ... قصتي أيها الصديق تتلخص في سطور قليلة، ولا حاجة هناك للشرح الطويل والمقدمات المسهبة: تزوجت من شاب أحببته وأحبني ... وبقيت سعيدة هانئة في ظلال الزوجية ... ومرت ثلاثة أعوام كلها صفاء وبلهنية! . ومن ثم ضحكت الأقدار هازئة ساخرة، وانقلبت الكأس الحلوة، فانثالت قطراتها على اليباب! . مات زوجي مصاباً بالتدرن الرئوي ... وتلفت حولي فلم أجد فسحة من الأمل المنتظر، لم أجد في هذه الحياة من أركن إليه وأستظل

تحت جناح رحمته ، لم أجد من ينقذني مما أنا فيه. وأظنك ستسألني عن أهلي . لقد مات أبي بعد زواجي بأيام قلائل ، وتبعته أمي بعد عام واحد ... أجل لقد بقيت وحدي ضالة شريدة ، حتى التقطني رجل فاجر سكير ، كان قد افتتح له محلا في شارع (الرشيد) ، وقد أطلق على محله اسم « وسيط الخدم » ...

— وسيط الخدم ! !

— أجل ... وهذا الوسيط باعني بدوره إلى تلك السمسارة التي رأيتها عند دخولك هـذا المكان وهي جالسة عند الباب الداخلي ... وتراني الآن وقد أصبحت ملهاة لكل من ينهد الإثم والخطيئة ، أغوص في هذا المستنقع العفن ، هالكة مع رغبات الرجال ، أمنح نفسي لطلاب اللذة والجسد ، للكلاب المتشرة الجائعة على الجيف ، أرافق فرسان الضباب في غزواتهم وغزواتهم !.

انتهت من قصتها وأنا أتطلع إلى وجهها الذابل وقد انتهبت خلف هذا الذبول تلك الشعلة التي اختصرتها أصابع الزمن ، وخنقتها أحضان الفجور ... فأطرقت خجلا وحياء ... ممن ؟ ! لا أدري ! ! ولكنني شعرت بأنني أغوص إلى أذني في العار والإثم ، وأنا أسمع من بعيد ضحكات عريضة مجهولة تتجاوب في أنحاء الغرفة ! . تلك كانت ضحكات الشيطان !

ونظرت مرة ثانية ، إلى تلك المرآة المصدئة ... فرأيتها ... يا للعجب ! قد انجلى الغبار عنها ، وتساقطت تلك الأقذار التي كانت تغطي وجهها الصقيل ، فإذا بها تتلألأ بأنوار ساطعة ولمعان غريب ، ينفذان إلى الأعماق . وسقطت نظراتي هادئة رخية ، ورحت أتفرس في قسمات وجهي ... أحقا ما أرى ؟ أراها مشرقة لامعة ، تشع بأنوار زاهية ، بريق ساحر أخاذ لم أعهده منذ زمن بعيد ... منذ عشر سنوات ، عندما كنت ، في ذلك الزمن : أدرج في النور ، وأتعشق الهدوء والاستقرار ، كالطفل البريء يبسمني الضاحكة وأساريري المشرقة ... أجل كنت هكذا ، قبل أن أخوض هذا الخضم المتلاطم ، قبل أن تجتاحني أنواء الزمن العاصفة ، قبل أن أشترك في معركة هائلة ، أصبحت فيها حليف الشيطان وعبد شهواته ، أسير في موكبه طائعاً ذليلا ... قبل أن أكون سعيد ضميري وعبد إرادتي ، قبل أن أكون من راكبي الآثام والموبقات ... قبل أن تنتصر جيوش الرذيلة الفاتكة على فلول الفضيلة المندحرة ...

والآن ... وفي هذه اللحظات ، وبعد هذا الانقلاب الفجائي ، حلقت نفسي تفتش عن طريق المتاب ، تريد أن تحرق دموع الندم على عتبات المستقبل القريب

وتلفت حولي في أرجاء المكان ، وهناك امتدت نظراتي تفتش عن منفذ للخلاص ، عن طريق مستقيم ، عن منقذ جبار أفزع إليه بعد إخفاق الأماني ... فرأيت صديقي ، ذلك الشيطان قد نحر نفسه خائباً على عتبة هذا المخدع الذي ارتفعت في فضائه ألحان التوبة والغفران ، من قلوب طهرتها الأيام وغسلتها دموع الندم والاعتراف

وعاودت أنظر إلى صاحبتي ، فرأيتها تبكي بدموع غزيرة راحت تتساقط كاللؤلؤ المنثور على خديها وتنساب على وسادتها ... يالها من دموع طاهرة نقية . يالها من لحظة عصيبة كشفت أمامي سر هذه الروح المعذبة الناعمة ، هـذه الروح التي صفدتها أغلال الغواية ، أغلال الإنسان الآثم الجاحد ... هذه الروح التي عصرتها يد الطغاة الظالمين ، فتركتها نقاية حقيرة ملقاة في زوايا النسيان .

وطغت على موجة من الاشفاق والحنان ، موجة استحوذت على كياني وشغلت جميع أحاسيسي ، فصممت على أمر عظيم ، أمر أقل مايوصف به أنه عمل إنساني يثلج له صدري ، وأستحق عليه مرضاة وجه ربي ومغفرته ، لعله يمحو مابذمتي من عقوق وكفران! فأمسكت بيدها ورفعتها إلى فمي لأطبع عليها قبلات حرى ، قبلات ملتهبة محرقة استنزفت فيها عصى الدموع ، تلك الدموع التي كنت أضن بها كما يضن الشحيح على كنزه . وتافتت نحوي كأنها تستجير بي ، كأنها تريد أن تقول لي : اهرب بي من هذا الأتون الملتهب ، من هذا الجحيم المسعور ... هيا - هيا

ولم أشعر بعد ذاك ، إلا أنني أمسك بيدها وأخرج بها مسرعاً من الدار ، كما لو كانت ترقبنا ألف عين ، وتتسمع إلينا ألف أذن ... وكان الليل يجود بأنفاسه الأخيرة ، والشوارع توشك أن تقفر للأمن رواد الظلام ، وعشاق الحانات ، وفرسان الشهوات والآثام ...

وغبنا في ثنايا الطريق ، ورحنا نقطع الدروب على هدى ضوء باهر انبثق من قلبينا المتفجرين بإيمان جديد ... ومشت معي طائعة سلسة القياد : لأقضي معها بقية عمري ، ولأدفن بين يديها بقية من عفة لاتزال تضج في القلب

العراق - الحلة

عبد اللطيف الشرباني